ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

ما العمل ؟

سؤال أثرناه قبل أسبوعين في ختام مقالتنا بعنوان : " فلسطنة المنطقة : هل هي مفاجأة للأمريكيين أم استدراج محسوب منهم !؟ " . ثم مهدنا في الأسبوع الماضي لتلك الإجابة بأن توجهنا بالكلام إلى محيطنا العربي والإسلامي ، ناصحين ومطالبين بإلحاح بضرورة وجود عمل على مستوى المنطقة ، يوقف التدهور الحاصل من ناحية ، ويحول دون تفاقم الغليان والتوتر الكفيلين من ناحية أخرى بإحداث اضطرابات شعبية عفوية تبدأ بسيطة وما تلبث قليلا حتى تخرج عن سيطرة الجميع ؛ وتستنزف القوى والموارد على غير طائل في هذا الزمن الحرج ، وقد تصبح فرصة للقوى المعادية ـ وليس لأهل المنطقة ـ كي يشرعوا في تنفيذ مشاريعهم الخطيرة للمزيد من التجزئة وإعادة رسم خريطة المنطقة ، أي ـ كما قال لورانت موراويك في تقريره المقدم إلى وزارة الدفاع الأمريكية بتزكية من رئيس مجلس السياسة الدفاعية ريتشارد بيرل ـ : ((العراق هو الهدف التكتيكي والسعودية هي المركز الاستراتيجي ومصر هي فائض الربح !!)) .

وندخل الآن مباشرة في الإجابة على السؤال : ما العمل في فلسطين ؟

وحتى عهد قريب كانت الإجابة جاهزة على لسان الجميع ؛ بمن فيهم أصحاب أعلى المناصب في السلطة الوطنية والمداومون في اجتماعات القوى الوطنية والإسلامية وكتاب الأعمدة في صحافتنا المحلية . فالإجابة التي لا إجابة غيرها هي : " الانتفاضة هي العمل . ولا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة ".. وقد استمرت الأصوات تردد هذه العبارات بعدما أباحت الحكومة الإسرائيلية لقواتها الجوية أن تقصف المدن الفلسطينية بطائرات إف ١٦ وحوامات الأباتشي وبعدما أعادت القوات المسلحة الإسرائيلية احتلال الضفة الغربية بكاملها ، وبعدما دخلت الانتفاضة في مرحلة استخدام الهاونات والصواريخ المصنوعة محليا ثم مرحلة العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر . وإذا كانت هذه الأنماط من العمليات قد بدأتها بعض الفصائل فقد تبعتها بقية الفصائل ذات الإمكانيات المادية والقدرات التنظيمية والفعالية في الساحة .

هل نتهم أبصارنا وأسماعنا ؟

من الضروري اليوم ، بعدما أقدم الأخ محمود عباس أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية على انتقاد ظاهرة عسكرة الانتفاضة وجاهر بالدعوة للتوقف عن العسكرة بل وعن الانتفاضة نفسها ونادى باستعمال القوة ضد المخالفين ، وتلاه في التوجه الانتقادي السيد خالد سلام (أو محمد رشيد وربما برهان عبد الحق أيضا) ، من الضروري أن نعيد سلسلة الوقائع كما حدثت ، فنحن شهودها الأحياء الذين لا نستطيع أن نتهم أبصارنا وأسماعنا ، وعلينا أن نعيد إلى الأذهان أن (العسكرة) خطوة بدأت غداة تفجر الصراع ـ دون سابق تخطيط ـ بقيام بعض مفارز قوات الأمن الوطني المتمركزة قبالة مواقع عسكرية احتلالية ، باستخدام السلاح الخفيف الشخصي المتوفر في يدها لإطلاق النار عرضا وهي تحت تأثير الانفعال الغاضب ، وذلك إما دفاعا عن نفسها أو عن تلاميذ المدارس المتظاهرين في المكان ، ثم شرعت بعد حين حماس والجهاد وفتح والشعبية والديمقراطية في عمليات ازداد مع الوقت عددها واختلفت أنواعها . ولم تجد أي منها صعوبة في العثور على العنصر البشري الراغب في تقديم نفسه قربانا ضد الظلم القياسي الذي أوقعته بالجميع الهجمة الإسرائيلية الشرسة على جميع مقدرات الحياة الفلسطينية . وبعبارة أخرى إن عسكرة الانتفاضة كانت رغبة شعبية جارفة ترجع إلى خمائر قديمة كامنة ، سرعان ما تكاثرت تكاثرا مضطردا بسبب العنف الإسرائيلي والإفراط في استخدام القوة مصحوبا بالإهانات وخيبة الأمل في السلام الذي لم يتحقق . وقد بلغت هذه التعبئة مبلغا شعرت معه المنظمات المختلفة أنها قد تفقد الصدقية أمام الشعب إذا لم تستجب لمشاعر الناس فتوقع بالعدو خسارة كما أوقع بالناس . وتعزى هذه الرغبة الشعبية إلى أن الهجمة الإسرائيلية الشرسة كانت من العنف بحيث لا يمكن للكائن البشري السوي إلا أن تتشكل لديه تلقاءها ردة الفعل المناسبة التي يصفها القانون الطبيعي البديهي في الميكانيكا بقوله : لكل فعل رد فعل مساو له في

القوة ومضاد له في الاتجاه . وتعزى الحالة أيضا إلى أن الإسرائيليين لم يتركوا أمام الفلسطينيين مجالا متاحا قط لأساليب التعبير السلمي عن السخط والاحتجاج التي لجأت إليها الجماهير الطلابية والشبابية الفلسطينية عقب مداهمة آريئيل شارون المسجد الأقصى وتدنيس ساحاته بواسطة مئات الحراس المرافقين له يوم الخميس الأغبر التاسع من أيلول ٢٠٠٠ ثم قيام إيهود باراك في اليوم التالي (الجمعة) باستكمال مخطط التفجير بواسطة إيعازه للجيش بالمبادرة إلى إطلاق النار على المصلين داخل المسجد الأقصى قبل أن يتموا صلاتهم . وعندما عمت أنحاء الضفة والقطاع المظاهرات السلمية ردت القوات المسلحة الإسرائيلية بإطلاق النار عليها ، وعندما قام الصبية والغلمان طلاب المدارس بقذف الحجارة على السيارات المصفحة أو الدشم الحصينة فقد رد جنود الاحتلال بإطلاق النيران على عيون الأطفال وعلى الأجزاء العلوية من أجساد الشبان . ورافق هذه الجرائم تدابير وإجراءات تقطع خطوط المواصلات الأهلية في الضفة والقطاع وتصادر حرية حركة المواطنين الفلسطينيين وتضيق على معيشتهم ، ورافقتها أيضا حملة منظمة لتدمير مقار الشرطة والأجهزة الأمنية الفلسطينية ، وحملة أوسع استهدفت اقتلاع الأشجار وتهديم الآبار وتبوير الأراضي على مسافات شاسعة حول المستعمرات وحول الطرق التي تخدم تلك المستعمرات . واستمر الفلسطينيون يقومون بردود الأفعال على أعمال العدوان والتنكيل المختلفة التي تقترفها قوات الاحتلال حتى يومنا هذا .

أفعال وردود أفعال

والخلاصة التي نضعها أمام نواظر الإخوة الذين جاؤوا الآن ينتقدون ما أطلقوا عليه (عسكرة الانتفاضة) تتمثل فيما يلي :

- أولا ـ لم تكن هناك لدى أي طرف فلسطيني في بداية الأمر خطة يصح أن تدعى عسكرة الانتفاضة . ولكن كانت هناك ردود أفعال استنفرتها واستفزتها أساليب القوات المسلحة الإسرائيلية في التصدي لمظاهر الانتفاضة التي مارسها الجمهور واعتادها في أيام الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ ـ ١٩٩٤) . ولا ينسى أحد أن وزارة الجيش الإسرائيلي أصدرت إلى القيادات التنفيذية تعليمات رسمية تمنح القادة الميدانيين حرية أكبر ؛ ثم حرية مطلقة ، في قمع جمهور الصبية المتظاهرين بقسوة بالغة . وفي تلك المرحلة عززت القيادة الإسرائيلية قوات الاحتلال في مناطق السلطة وداخل المستعمرات دون توقف بأعداد كبيرة من المدافع والدبابات ، وأفرزت قوات جوية كافية للمعاونة الميدانية في أعمال القمع الموكلة إلى المدرعات والمدفعية . ووضعت وزارة الجيش الإسرائيلي قيد التنفيذ خططا كانت معدة جاهزة للحرب عرفت أولا بحقل الشوك ثم راح شارون يجدد مزيدا من الخطط التي أطلق عليها تسميات جديدة كالسور الواقي والمتدحرجة .. الخ .. الخ . وكلها توقع بالفلسطينيين قمعا غير مسبوق يؤدي إلى مزيد من الثورة والسخط والرغبة في الانتقام .

- ثانيا ـ كان من الصعب على العناصر الفلسطينية التي بات الانتقام همها أن تعثر على أهداف يمكن ضربها في المستعمرات الواقعة في مناطق السلطة الفلسطينية أو في الشوارع التي خصصها جيش الاحتلال لمواصلاته بين المستعمرات وبين مناطق ٤٨ لاسيما في الفترة الأولى من انتشار التعزيزات . وهذا ما يفسر ـ حسب فهمنا وتقديرنا ـ الإقبال على صناعة مواسير وقذائف الهاونات ، ومن بعدها الصواريخ، محليا ، للتغلب على تلك الصعوبة . وفي موازاة ذلك ، وتحت تأثير ازدياد وحشية القمع الإسرائيلي، ثارت موجة العمليات التفجيرية التي قام بها عدد من الشبان والشابات الفلسطينيات في مناطق ٤٨ ، لا سيما القدس . وأثناء توالي تلك الحلقة من الأفعال الإسرائيلية والردود الفلسطينية المضادة لم يكن بوسع مسؤول فلسطيني أن يجرؤ على مخاطبة الشبان الفلسطينيين الغيورين على مقدساتهم الجريحة كلها قائلا : توقفوا يا شباب ! إلى أين أنتم ذاهبون ؟! كما لم تكن الشرطة وأجهزة الأمن الفلسطينية التي يجري قصفها وتدميرها وتشريد رجالها في حال يمكنها معه أن تصادر عمل

- ثالثا ـ لم تبلغ هذه الظاهرة الفدائية الفلسطينية الخاصة مبلغ حرب تحرير شعبية بالمعنى الفني ولا الجماهيري . وهي لم تستوعب الجمهور الواسع الذي رأى فيها عزاء عن القهر الذي أصابه كما شعر بالإكبار نحو أبطال التضحيات القصوى الذين يجودون بأرواحهم غير هيابين ولا وجلين ، فالعمل العسكري ظل اختصاص مجموعة ضيقة من الناس المقيمين في المدن والكتل السكانية الفلسطينية . ولم تفكر الفصائل في ترتيب غرفة عمليات مشتركة تبلور رؤية (نظرية)

لهذا الصراع وللمدى الذي يراد الذهاب إليه والمراحل التي ينتقل فيها وصولا إلى تحقيق الهدف (الذي ما زلنا لا نعرف ما هو) . ومن الواضح في الوقت نفسه أن هذه المخترعات الفلسطينية اليدوية ليست أكثر من محاولات بدائية بسيطة محدودة التأثير . لا سيما إذا قارناها بالترسانة الإسرائيلية الهائلة التي تشتمل على أحدث الأسلحة والذخائر الفتاكة والمحرمة دوليا . غير أن الإسرائيليين ، جريا على عادتهم في التهويل وفبركة الدعايات بالغوا مبالغة كبيرة في وصف هذه الوسائل القتالية البدائية .

مزايدات عنترية ومناقصات بيتانية

لا نريد بالخلاصة التي نوهنا بها أن نقول إننا ضد التقييم وإعادة النظر في كل ما حدث منذ انطلقت الانتفاضة حتى اليوم . بل بالعكس تماما . ويجب أن لا نكون في وارد مزايدات عنترية . ولا نكون في الوقت نفسه في وارد مناقصات بيتانية (وبيتان - لمن لا يعرف - هو جنرال فرنسي أقام حكومة ممالئة للاحتلال النازي لبلاده في مدينة فيشي أثناء الحرب العالمية الثانية) . ثم إننا لا نريد أن نجعل همنا تبرير ما كان أو الاعتذار عما لم نفعل ، بل نحن نقرر موضوعيا حقائق ثابتة ينبغي أخذها بالحسبان لدى مقاربة الأمور موضوع البحث .

وأذكر - مثلا - أنني قلت في أسبوعياتي منذ بداية الانتفاضة إن الفلسطينيين إذا لم ينجحوا في الحصول على دعم ومشاركة عربية في انتفاضتهم فعليهم أن يتبنوا استراتيجية دفاعية وحسب ، ودعوت إلى القيام بحفر الملاجئ والخنادق والاستعانة بها في التكتيكات الدفاعية . وسمع الناس - مثلا - صوت الدكتور حيدر عبد الشافي يطالب بما دعاه (تنظيم الانتفاضة) ، بواسطة تشكيل (قيادة للوحدة الوطنية) . ثم طالعتنا بعض الشخصيات الليبرالية ذات حين بإعلان في الصحف يدعو إلى الامتناع عن العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر .

واليوم ، بعد الدخول في العام الثالث للانتفاضة ، تتصاعد بعض أصوات فلسطينية قيادية تقول :" كفى انتفاضة .. كفى تعريضا لمنشآت السلطة الفلسطينية للدمار .. كفى قتلا وخراب ديار .. نحن لم نأت لنحارب الإسرائيليين ولكن أتينا وفقا لأوسلو كي ننفذ بالمفاوضات اتفاق أوسلو . وينتهي الكلام بالتحذير : لنحافظ على غزة قبل أن يحدث فيها ما حدث في الضفة " . وحجة هؤلاء أن عسكرة الانتفاضة قد أتاحت لشارون أن ينازل الفلسطينيين في الميدان الذي يملك فيه التفوق المطلق . وشيء ما في لهجتهم يحمل خطأ معنى أن ثمة في الجانب الفلسطيني من أعلن الحرب على الدولة العبرية وأنه مصمم على ما يفعل .

إذا كانت هناك وسيلة لوقف هذا النزيف الدموي ، مع الحفاظ على حقوق الفلسطينيين في حدها الأدنى فلا أحد يعارض جديا في ذلك .

ومبلغ علمنا أن الفصائل الفلسطينية كلها ، وحماس ليست استثناء منها ، استعدت لإعادة النظر في العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر . وقيل إن مدير المخابرات العامة المصرية السيد حمل للإسرائيليين أثناء زيارته الأخيرة قبل ثلاثة أسابيع لهم ولقيادة السلطة الوطنية نصحا مبنيا على ما استنتجه من مباحثات فتح وحماس في القاهرة آنذاك ، يقول بإمكان وقف العمليات داخل الخط الأخضر من قبل الجانب الفلسطيني مقابل تعهد من الحكومة الإسرائيلية بعدم الاستمرار في عمليات الاغتيال والاجتياح والاحتلال لمناطق السلطة الفلسطينية . ويقال إن شارون رفض مناقشة الفكرة جملة وتفصيلا .

الحوار بروح الوحدة الوطنية

ونود أولا وقبل كل شيء أن ننطلق من قاعدة الوحدة الوطنية ، إذ لا بديل لها . ونفترض أن أصحاب الرؤى والآراء المختلفة كلهم يجتهدون من أجل المصلحة الوطنية العليا . أي أننا ننبذ باقتناع تام العادة الذميمة التي تسول للمختلفين في الرأي أن يدمغ بعضهم بعضا بالخيانة وما شابهها من أوصاف دون أناة .

ونود ثانيا أن نستدرك بأن السلام هو مطلب وأمنية إجماعية للشعب العربي الفلسطيني .ولا يتخيل أي طرف من أطراف الحوار أن لدينا حزبا للحرب وحزبا للسلام ، وأكثر من ذلك : ثبت أن الأطراف الفلسطينية كافة تملك الميل والعقل والإرادة لاتخاذ موقف إجماعي في كثير من الأحوال . ألم تتقدم السلطة الوطنية الفلسطينية ذات مرة قبل عام ونصف العام تقريبا بمبادرة وقف إطلاق النار من جانب واحد أملا في أن تمتنع إسرائيل عن المضي قدما في سياسة الاغتيالات ؟ وألم يحدث أيضا أن جميع الفصائل ، بما فيها حماس ،

توقفت آنذاك عن القيام بأية عمليات في العمق ؟ ومن ينسى أن إسرائيل عاودت الاغتيال والقصف غير ملقية بالا للموقف الفلسطيني ، ما فجر من جديد سلسلة عمليات استشهادية جذبت إلى الساحة شرائح لم تكن قد انخرطت حتى ذلك الحين في هذا النوع من العمليات (وربما لم تكن تحلم يوما أنها ستفعل) . ؟!

يلخص الأخ محمود عباس منظوره للعمل القادم بأقنومين أولهما : استخدام أساليب المظاهرات والاحتجاجات والأشكال الجماهيرية المشابهة بدلا من العمليات العسكرية . وثانيهما : العودة إلى طاولة المفاوضات .

ولكننا نتساءل بصدد الأقنوم الأول : ماذا إذا ردت القوات المسلحة الاحتلالية على مظاهرة الجمهور رجالا أو نساء أو تلاميذ مدارس بإطلاق النار عليهم كما سبق أن حدث في عهد باراك ؟ وماذا إذا سقط القتلى والمعاقون جراء ذلك ؟ هل نكسب الرأي العام الدولي ؟ ألم ترسم الدعاية الصهيونية في أمريكا طاقية يهودية فوق رأس محمد الدرة للزعم إنه طفل يهودي قتل برصاص فلسطيني ؟ وألم تقل الدعاية الصهيونية الموجهة إلى منطقتنا افتراء إن الرصاص الفلسطيني هو الذي قتل محمد الدرة ؟

يخيل لنا أحيانا أننا لن ننجح أبدا في كسب الرأي العام الغربي مهما فعلنا ، إذ يغلب عليهم الاستعداد لتكذيب حقائقنا الناصعة وتصديق أباطيل الصهيونية ، لأنهم يعيشون في واقع الأمر تحت رحمة رجال المال اليهود .

ثم نتساءل بصدد الأقنوم الثاني من أقانيم الأخ محمود عباس : ألم يكن أبو مازن نفسه حجر الأساس في جميع المفاوضات التي جرت بين الوفود الفلسطينية والوفود الإسرائيلية خلال السنوات السبع التي انقضت بين الاتفاقية الانتقالية وبين انتفاضة ٢٠٠٠ ؟

صحيح أن الأخ صائب عريقات استلم زمام الرئاسة التنفيذية في العديد من دورات المفاوضات ، ولكن اللجنة العليا للمفاوضات لم تخل يوما من أبو مازن ، وعدا عن ذلك كان له وللأخ أحمد قريع أوسع شبكة من الاتصالات مع الشخصيات الإسرائيلية في الحكم وفي المعارضة .

ما الذي نجم عن سبع سنوات من المفاوضات آنذاك ؟

نحن لا نستطيع أن ننسى أن الوفد الإسرائيلي تنكر لاتفاق أوسلو عمليا أثناء تلك المفاوضات الممطوطة حتى بلغ به الأمر في لحظة من اللحظات عندما أفحمه الوفد الفلسطيني بالحجة الدامغة في شأن من الشؤون أن قال :" القضية ليست قضية نصوص واتفاقات ولكنها مسألة مصالح " . (!)

ومعنى ذلك أن التنكر لأوسلو لم يبدأ منذ صرح شارون مؤخرا أن أوسلو ماتت وشبعت موتا ، بل هي ماتت في نظر الحكومات الإسرائيلية ، أو على الأقل وضعت في الثلاجة ، بعد التوقيع عليها في طابا ثم واشنطن بفترة ليست طويلة .

فما هي الوثيقة التي يرى الأخ محمود عباس أنها ستكون مرجعية المفاوضات إذا حدث الرجوع إلى المفاوضات ؟ أهي أوسلو من جديد ؟ وهل هناك دليل على موافقة شارون على ذلك ؟ أم أن أول مهمة للمفاوضات إذا عادت ثانية ستكون وضع مرجعية جديدة ؟ أم أن المفاوضات ستكون بلا مرجعية ؟ أم أن المطلوب هو البدء بإعلان أننا لسنا ندا للإسرائيليين في الحرب وأننا نعترف بذلك ونريد أن نقبل ما يعطينا إياه شارون شريطة أن يفعل ذلك بإخراج غير جارح ؟

وهل هناك في الوقت الحاضر أمور معروضة علينا من قبل الأمريكيين خلاف خريطة الطريق التي لم تصبح وثيقة مرجعية بعد ؟ وهل هناك أمور يجري البحث حولها تحت الطاولة في الوقت الحاضر ؟ وإن كان الجواب لا فما سر هذه الاتصالات الجارية في العواصم وآخرها رحلة الأخ محمود عباس في هذا الوقت إلى الدوحة ؟

لقد كان بودنا أن نناقش هذه الأمور مشافهة مع الأخ عباس لنفهم جلية الأمر ، ولكنه شاء أن يأتي إلى غزة ويتخير الأطر التي يتحدث إليها ، ومن بينها أشخاص في اللجان الشعبية للاجئين وكذا جمعية رجال الأعمال الذين قال لي أحدهم : لماذا جاء الرجل يكلمنا نحن ضد العمليات التفجيرية ؟ ما لنا نحن وما للعمليات التفجيرية ؟ ولماذا لم نسمعه يتكلم منذ البداية ؟

غير أنني أرى أن بوسع الرجل المسؤول دائما أن يتخير إطارا يحاضر فيه أو يطرح فكرة أو رأيا للتوجيه أو للمناقشة . والوقت قد يكون متأخرا أحيانا . ومع ذلك فلا ضير من طرح الأفكار ولو متأخرة ، إذ قد تستفاد منها الدروس التي تنفع في تجارب قادمة .

ولكن الذي لا أفهمه في الحقيقة ، ولا أستطيع أن أوافق عليه ، ولا أعرف بأية صفة قاله الأخ محمود عباس فهو استخدام القوة ضد الفلسطينيين الذين يخالفون أطروحاته . فمع عدم المساس بمكانته نقول إن الأخ أبو مازن ليس المرجع الأعلى في البلاد ولا هو من أعضاء السلطة الفلسطينية المنتخبين ولا من ذوي المراكز الأمنية ، وهذه واحدة فقط . أما الثانية فهي أن الأخ أبو مازن إذا كان يقصد وضع طائفة من الناس في السجون فهو لا يستطيع أن يضمن عدم قيام طائرات شارون بقصفهم وقتلهم . ونحن لا نتصور بتاتا أن يكون قصده قتلهم ابتداء ولا نخال أنفسنا أحرص منه على حياة الناس .

ولكننا نقول إن علينا أن لا ندخل في أي نوع ولا أية درجة من الحرب الأهلية . وعلينا أن نحتفظ في ذهننا دائما بالعبرة من التجربة الفلسطينية المريرة : يظل صبي فلسطيني معه في يده حجر ، أقرب إلى تحقيق آمالنا من دولة كبرى ناصبتنا العداء تاريخيا على طول الخط . إن صبية الحجارة في الانتفاضة الأولى كانوا وراء موافقة الإسرائيليين والأمريكيين على التوقيع على أوسلو . لأنهم أكسبوا المفاوض الفلسطيني قوة تحسب في كفته . أم نحن نحسب أن الإسرائيليين يمكن أن يجودوا لأحد بشيء ؟ أم نحسب أن عبقريتنا تستطيع أن تقنعهم بأن مصلحتهم تتمثل في الاتفاق وإيانا دون أن يكون لدينا أي شيء نفعله مقابل جبروتهم ؟

قلنا ونقول دائما : نحن لا نملك مالا ولا سلاحا ولا ثروات طبيعية ، ولكن قوتنا تكمن في وحدتنا الوطنية وتجانس نسيجنا وفي سجايا شعبنا المؤمن بالله وبحقه . وأكبر خطأ نرتكبه هو أن نردع عنفوان شبابنا وأن نخلي الساحة لافتئات العصابات .

إن الحوار والمفاوضة مطلوبة مع الإخوة قبل أن تكون مطلوبة مع الأعداء ، ولا يجوز لأحد بعد هذه التجارب كلها أن لا يكون في منتهى الحرص على الوحدة الوطنية . وما من علاقة يجب أن تسود الساحة الفلسطينية غير علاقة الحوار الصبور والتفاهم .

(يتبع في الأثنين القادم)